



المؤذن قبل الفجر

في تلك الليلة ، أدار الله قرص الشمس، لتشرق، عند الصباح، من جنوب الوطن، فكنت، أول الواقفين، تمسك، بشعاعها الذهبي، لتمده على بقية الأرجاء.
في تلك الليلة، كانت الشمس تدفن الظلام وتكتب مرثية الشهداء النجوم. أولهم، كان بلال، يفسح، بطهارة الروح، لقرص الشمس أن يتسع، ولبقية النجوم أن تضيئ ولا تندثر.

يوم غاصت في الجسد الرشيق، لبنان، أرتالهم، كنت تسرح شعر المدن وتغني لها تنهيدة التحرير:

"لبنان، كم تسهب وكم تلد
مجدا، لأمتنا مذ سالف الأبد"

كانت التنهيدة أقوى من هدير الطائرات وأشد من صوت الجنازير، جنازير دبابتهم لكنها، لحن جنوبي، يمر على حقول القمح، يحتضن السنابل، يطلع فوق السفوح، وينساب رقيقاً إلى بيوت القرى، فتطلع كلها بصوت واحد:
" ياعلي، نحن أبناء الجنوب.....
ياعلي....."

كان لحن التنهيدة يخترق أسلاك "أنصار" فننتفض ونمتشق أحجار جنوبك
تبيح لنا الأحجار سر القرى والمدن
وصولاً إلى بيروت، "ست الدنيا"
فناصرهم بالحجارة والأجساد
لم تكن دبابتهم أقوى من التنهيدة
لم يكن جنودهم أقوى من الهتاف
ولم تكن طائراتهم أقوى من اللحن الجنوبي

الأنهار.... تغتسل بماء وضوئك
والأرض تدور، كلما سمعت وقع أقدامك
شجيرات اللوز، تبدو أكثر إخضراراً، حين تمر بها.

قبل مجيئك
بخوذاتهم مروا بها ، فتييست .
قبل مجيئك
المآذن تبدو صامته والأجراس لا تقوى على الصلاة
الشوارع مظفأة والساحات تضيق
الليل يمضي ثقيلاً
والأشجار كفت عن البوح.
قبل مجيئك

كان الطريق من صيدا إلى "كفر ملكي" حزينا
وكان البحر منكسر الموج
والقوارب لا توغل فيه.
لم يشهد البحر إحتجاجاً مثل هذا
إلا في غياب معروف
"يابحرية هيلا هيلا، هيلا هيلا هيا....."

وكان العراق يؤلف حزناً شهياً من تراب
وأمي تتشح بالسواد

ياطيب الأسرار ، يا حلو السريرة
ياضاحكاً، فوق الجراح
ياعصياً، على الحزن واليأس
ياواقفاً، من خطاك
ياطليفاً، في سمائك
تنغرس فيك الأرض
وتسعى إليك الحقول
دافئاً، يمضي إليك البحر
هادئاً، يعطيك أسرار القلاع
وصاحباً، حين تبتعد

أيها المؤذن للفجر، قبل الفجر،
بأي ماء توضأت؟ وأي حديثٍ أسمعتك مآذن صيدا والكنائس؟
أي زيتونة في ذلك الليل، صارت، بين يديك، فذائف؟

أيها العالمي
بشمسك تدفأت، حين كانت تلسعني ليالي الشوق إلى بغداد
كنت عراقياً قبلي وكنت لبنانياً قبلك، وكنا معاً، ننتمي إلى فلسطين
تلك عربتنا، حلمنا بها إنسانية متحررة، بلاطغاة أوطانفيات
أيها العالمي
لا تتركني وحيداً في غربتي
أحتاج إلى شمس الله وشمس يديك وشمس جنوبك
سأصلي على نية اللقاء بك، فحتى هناك لا يؤنسني غيرك

جواد الساعدي

Aug. 2007